مقدمة

في عددها ليوم ٢٠٠١/١٠/١١م نشرت صحيفة «الغارديان» مقالاً لفرنسيس فوكوياما، تحت عنوان: «لقد ربح الغرب[1]»، يحاول أن يكيّف فيه نظريته «نهاية التاريخ» مع الأحداث الجديدة التي بدأت بتفجيرات نيويورك وواشنطن ليوم ١١/أيلول سبتمبر ٢٠٠١م، كما يناقش على ضوء الأحداث ذاتها نظرية هنتنغتون حول «صراع الحضارات».

وليست هذه هي المرّة الأولى التي يحاول فيها فوكوياما «أقلمة» نظريته مع الأحداث التي تأتي بها الأيام، فقد فعل ذلك في كتابه الجديد «التمزّق الكبير» وكلّ ذلك مجرّد محاولات ترقيعية لنظرية لا أرى أنّ العشر سنوات القادمة ستبقي لها على أثر.

نظريّة فوكوياما تبيّن عوارُها في أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وعلى أقل تقدير فإنّ هذه النظرية وقفت صامتة مشدوهة لا تستطيع أن تقدم جواباً لما حصل، لذلك حاول واضعها استنطاقها في مقالة «لقد ربح الغرب»، وليلوي بعض جوانبها المطاطية لاستيعاب «هذا الجديد»، أما بالنسبة لنظرية صموئيل هنتنغتون فإنّها ألقت بظلال كثيفة على الجانب الثقافي لا الاجتماعي، وفي الوقت الذي راحت تتلقفها فيه النخب الثقافية والسياسية في العالم «كمصطلح كبير» تدور حركة التاريخ بأهل الكوكب الأرضي نحوه، وفي إطاره أيضاً، لم يكن هناك أيّ ملمح في تحوّلات أو حركة التضاريس «الاجتماعية» العالمية يدلّ على دقة هذه

(١) نشر المقال مترجماً في «السفير» اللبنانية بتاريخ السّبت ١٣ تشرين الأول ٢٠٠١م العدد ٩٠٢٨ ص ١٣.

النظرية، وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر لا لتقف في صفّ هنتنغتون كما يرى فوكوياما، بل لتركل نظريته نحو الهاوية..

ولا يسعنا بعد هذا أن نغفل نقل مقال فوكوياما، لأنّه يعتبر حجر زاوية في مناقشة رؤاه ورؤى هنتنغتون أيضاً، طبعاً هذا فيما يخصّ التفاعل الواقع بين النظريتين والواقع.

ذلك لأنّ النظرية حين توضع فإنّها تستند إلى الماضي، بمحاولة رصف وقائعه في شكل قواعد عامة، تكون صالحة لتقنين وضبط حركة المستقبل، باعتبار أنّ «التاريخ يعيد نفسه» لذلك تبقى صحّة كل نظرية في «المستقبل» مرهونة باستيعابها «للماضي»، ومع مرور الزّمن تبدأ هذه النظرية أو تلك تثبت صحّتها، أو تتهاوى وتنهار رغم محاولات الترقيع، والاستدراك، والإضافات.

ومشكلة هنتنغتون وفوكوياما والكثير من كتّاب ومنظري ومفكري الغرب تكمن في شيئين:

الأول: عدم الموضوعيّة، وهو أمر ليس بالضرورة متعمّدا عند الكاتب، بقدر ما يكون جزء من تركيبته العَقدية أو حتى اللاشعورية يصعب الإنفكاك عنه، بحيث يكون لهذه التركيبة أثرها على العقل والتفكير، وهو ما يعطي نتائج نظنّها عقلية بحتة وحيادية أيضاً، لكنها في الواقع تكون مشوبة بعناصر «ميكروسكوبية» دقيقة متعلّقة «بالتراكمات» العَقدية، والنفسية التي تكوّن هذا الشخص، لذلك لا يوجد شيء اسمه حياد، ومحاولة أيّ شخص التخلّي عن هذه المكونّات النفسية والعَقدية، هي في الحقيقة تخلّ عن «الأنا» كلها، وهذا مستحيل.

وبالتالي فإنّ كتابات الكثير من المفكرين إنّما هي مواقف، ثقافية تمليها تموقعات الصّراع، كما أنّها أيضاً متطلّبات ثقافية يستدعيها الانتماء والولاء لدين ما، ولغة ما، وقوم ما، ومجتمع ما.

هُنَا لابد من استحضار التعريف الذي قدّمه روبرت بيرستد «للثقافة» في كتاب «النظام الاجتماعي» «The social order» حيث يقول: إنّ الثقافة هي ذلك الكلّ المركّب الذي يتألف من كلّ ما نفكّر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في مجتمع.

ومن هذا فإنّ نظريتي فوكوياما وهنتنغتون ليستا في الأخير سوى تعبير عن رؤيتين ثقافيتين للغرب، موجودتين في النخبة، وفي الشارع أيضاً، هما:

١ ـ الأنانية وعقيدة العظمة (نظريّة فوكوياما).

٢ ـ عدم الانتباه إلى أن هناك آخر قابلاً للثورة على الظّلم، والهيمنة.

إن الأمر لا يعني قابلية Viability النظريتين لاستيعاب رؤيتين يتوزع حولهما المجتمع الأمريكي أو الغربي كلّه ويندرج في إطارهما، لا، أبداً، الأمر يعني قبل ذلك وبعده أنّ النظريتين تعدّان تعبيراً بدءً عن هذه الازدواجية (الموقفيّة) الموجودة في المجتمع الواسع في الغرب..

والذي يقوله فوكوياما، يمكن أن تسمعه من الملايين من الأشخاص في الولايات المتحدة الأمريكية، ممن لا يرون الآخر، ولا يصدّقون بأنّه سيأتي اليوم الذي تتراجع فيه بلادهم، أو تندثر، وفوكوياما لم يفعل أكثر من أنه حاول بهرجة قناعته المبدئية في شكل نظريّة، في الحين الذي لا يستطيع عشرات الملايين معرفة حدود أو مرتكزات ما يدّعونه من الهيمنة السرمدية لأمريكا..

ومنذ سنوات ونحن نتابع ما يُنشر في موضوع «صراع» أو «صدام الحضارات» محاولين العثور على المسمار السرّ المدقوق في أحد جدران القلعة، والذي ينبني عليه كلّ شيء..

ولعلنا في سبيل ذلك قد تأمّلنا كلّ الزوايا المُنارة والمعتمة، ولمسنا أو اقتربنا من كلّ الأحجار التي اعتقدنا أنّ المسمار قد يكون فيها.

الموضوع صعب، وشائك، ودقيق، والخروج «مليمتراً» واحداً عن السكة معناه إضاعتها، واليوم نجِد الكثير من الجرأة لنخرج بهذه الكتابة التي نعتبرها نظريّة متكاملة في هذا الموضوع، كما نعتبرها أيضاً تفنيداً لما كتبه «صموئيل هنتنغتون» وكثيرون غيره في هذا الموضوع الذي له وشائجه المتعلّقة بنظرية «نهاية التاريخ» التي حاول كاتبها إعادة شرحها بمقالات في الصّحف لتتلاءم أو لتستوعب الأحداث الجديدة التي بدأت بتفجيرات ١١ أيلول سبتمبر ٢٠٠١م.

وما دامت عقارب السّاعة تتحرك باستمرار، فإنّ هناك تبلوراً دائماً للظّواهر، يجعل من القصور قراءتها أو استشراف آفاقها على أنّها صيغ جامدة ذات مظهر واحد، أو صيغة ثابتة.

والذين لم يدرجوا عنصر الزّمن ولم يعطوه اعتباراً في نظرياتهم، وجدوا أنفسهم مع كلّ حادثة يحاولون التفسير والملاءمة..

ويبقى دولاب الزّمن الدائر يُخرجهم من صمتهم بعد كلّ مدّة ليقولوا أشياء تسدّ الشروخ، تماماً كما يفعل بنّاء لمْ يضعِ في اعتباره حال بنائه هيكلاً ضخماً أنّ هناك عواصف وأمطاراً وثلوجاً، وهزّات.. وسيولاً.. وقواصف.. ويبقى بعد كلّ عاصفة «يرمّم».. ما بَنى..

وكثيراً ما كانت النظريات تستمد حياتها من حياة واضعيها، فإذا مات أصحابها ماتت ودُفنت معهم، الأمر يذكّرنا بنظرية (Parsons) «بارسونز»، والتي كانت في حياته مدار الكثيرين، لكنّها بعد موته تحوّلت إلى مادة للتّندّر والاستخفاف، حتى عند الذين كانوا يدورون في فلكها، ومنهم «بيتر هاملتون» الذي أطلق على بارسونز بعد موته تعبير «الأب المخلوع».

كما أنّنا نتذكّر هنا ما ذكره كولن تيرنبول عن العالم السرمدي لأقزام مبوتي Mbuti في الكونغو البلجيكية في كتاب «The forest people»

شعب الغابة (١٩٦١م)، وهو يقول: كنت لأوّل مرّة بين أقزام مبوتي في غابة إيتوري Ituri، حيث ما كان يعرف آنذاك باسم الكونغو البلجيكية في عام ١٩٥١م، ولاحظت أنه على الرّغم من قصر المدّة فإنّ الأمور تغيّرت، وبات لزاماً أن أصحّح انطباعاتي في الأوّل، وعندما عدت للمرة الثالثة في الأعوام ١٩٥٧م - ١٩٥٩م عشت فترة صعبة، وعند عودتي ثانية إلى المنطقة نفسها من الغابة ذاتها في الأعوام ١٩٧٠ - ١٩٧٢م بدا لي وكأنه لابد أن أناقِض نفسي من جديد في كل ما ذهبت إليه(١).

ويمكن أن نضرب هنا مثالاً بصاحب نظرية «نهاية التاريخ» فرانسيس فوكوياما، الذي طلع علينا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول محاولاً إفهامنا أن نظريته تستوعب الأحداث الجديدة، وطبعا فحين تصمت النظرية (التي هي كلام)، مذهولةً أمام حادث يكذّبها، ويتكلّم صاحبها للدفاع عنها، فإنّ أوّل ما يُفهم آنذاك أنّ هناك مهمّة لمحام.. وحين تدخل النظرية قفص الاتّهام، ويعلن صاحبها أنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها، ثمّ يقوم هو بالمرافعة عنها، يكون الشرخ قد استفحل..

يقول فوكوياما: يزعم تيار من المعلّقين أن مأساة ١١ أيلول الماضي تثبت بأنني كنتُ مخطئاً تماماً عندما قلت قبل أكثر من عقد من الزّمن بأننا قد وصلنا إلى نهاية التاريخ

... تحدّى العديد من الأشخاص وجهة النظر هذه، ومعظمهم مرتبط ربما بصموئيل هنتغتون

... أعتقد أنّه في نهاية المطاف سأبقى مُحقّاً(٢).

---

(١) كول تيرنبول "C-/Turanbul "The Mbuti pygmies (5).

(٢) مقال لفوكوياما بعنوان: «لقد ربح الغرب» نشرته الغارديان يوم ٢٠٠١/١٠/١١م ونشرته السّفير اللبنانية بترجمة إيلي شلهوب يوم السبت ١٣ تشرين الأوّل ٢٠٠١م العدد ٩٠٢٨.

إنّ الثغرات الخطيرة الموجودة في الكثير من النظريات الغربيّة، ومنها نظريتي هنتنغتون وفوكوياما لا تحتاج إلى سدّ، لأنّ الفتق قد عظم على الرّاتق فيها، بل يحتاج البناء كلّه إلى نقض، وإقامة هيكل نظرية جديدة لا يشترط بالضّرورة أن تقول نصف ما قاله هؤلاء، ولا أن تنطلق منهم أو ترجع إليهم..

هل الحضارات تتصارع؟ وأين هي هذه الحضارات؟ وأين مظاهر الصّراع بينها؟..

أسئلة كثيرة وهامّة تصلح لأن تكون الإجابات عنها اللحمة والسّدى في كتابة الموضوع..

نحن جزء من الصّراع، لكننا كنّا دائماً ننظر إلى أنفسنا وفق نظرة الآخر إلينا، وهذا يعني أنّ الأمر أقرب إلى «التنكيل» منه إلى الصّراع، إنّ الأمر أقرب في صورته إلى الوالد الذي يعاقب ابنه الصّغير، لكنّه يسمّي هذا «مصارعة».

المصارعة تقتضي مشاركة الطرفين في الفعل كفاعلين، لا كفاعل ومفعول به..

ونحسب أننا قد وضعنا أيدينا على ما نراه نظرة جديدة، منطقية ومتميّزة لما يحدث اليوم وما يظهر في الأفق، ممّا يسمّيه البعض صراع حضارات، ويسمّيه الآخرون حوار حضارات.. وبذلك نكون قد قدّمنا نظرية يمكن المراهنة عليها.. خاصّة عند أولئك الذين ليست لهم نظرية متميزة يتبنونها بدل صدى نظرية فوكوياما أو هنتنغتون من الذين ملأوا الصحف والمنابر والقنوات ضجيجاً حول «صدام» مبهم، و«حوار» غير مفهوم..

إنّ الذي يحدث اليوم، وغداً، في إطار شبكة العلاقات، شبيه بالمباريات التصفوية التي تنتهي بعد كلّ دور إلى تأهّل فريق وعزل آخر،

وهكذا فالصراع اليوم تصفوي قائم بين الثقافة والمادة، لكنّه بعد ذلك سيكون تصفوياً بين الثقافات المتعدّدة، وهو ما يعني اتجاه العالم اليوم نحو تكوّن تكتلات ثقافية دينية كبيرة تقوم بدل الإمبراطوريات السّياسية، ولئن كان الصراع والاستعمار والانتداب اليوم سياسياً تخدمه الآلة العسكرية والاقتصادية، فإنّ هذه الآلة ستتحوّل في الغد إلى الصّراع والاستعمار والانتداب الثقافي الديني..

لذلك يلاحظ بداية وإرهاصات تحوّل التصادم في المفاصل الأساسيّة للصّراع من تصادم سياسي علماني إلى تصادم ديني، خاصّة في القضية الفلسطينية وهو الأمر الذي بدأ يرسم الخطوط الأولى لصراع المستقبل.

وقد رأينا قبل الخوض في لجة الموضوع أن نثبت مقال فرانسيس فوكويا والذي لا يجدر إغفاله هنا.